

## الدكتور محمد بن العربي : مواقف واسهامات ( 1850 - 1939م )

دويذة نفيسة : أستاذة التعليم العالي  
بالمدرسة العليا للأساتذة  
الجزائر

تاريخ إرسال المقال : 14-11-2017 تاريخ قبول المقال : 19-04-2018

### ملخص

تعتبر شخصية الدكتور محمد بن العربي (1850 - 1939م) إحدى أبرز الشخصيات النخبوية الجزائرية الرائدة، وذلك من منطلق أنه من الأطباء الجزائريين الأوائل إن لم يكن أولهم فعلا. كما أنه ساهم من جهة أخرى وبشكل كبير في تنشيط العمل السياسي بمدينة الجزائر، وانشغل بقضايا واهتمامات مواطنيه؛ من خلال منصبه كمستشار بلدي. وقد جمع الرجل ما بين الممارسة الوظيفية لمهنته كطبيب وبرع في ذلك، وما بين المشاركة السياسية التي سجل فيها مواقف مشرفة وأداءً رائعاً ينم عن وطنيته المتأصلة، وكذا رغبته في تقديم الأفضل لبني جنسه، ولم يبدو عليه أي تأثير بالمنظومة الثقافية والاجتماعية الغربية كما حدث مع بعض أقرانه.

**الكلمات المفتاحية:** محمد بن العربي، الطب، مدينة الجزائر، مستشار بلدي، السياسة الاستعمارية، لجنة جول فيري.

### Abstract

Mohamed Ben Larbi (1850- 1939) is one of the most prominent Algerian doctors in the end of the 19th century. He Actived in the political sphere, and he is interested in the Algerian Muslim community issues. He managed to get a large central niche of its citizens, as a doctor and also as a politician.

**Key words:** Mohamed Ben Larbi, Algiers, Advisor to the Municipality, The colonial policy, The committee of Jules Ferry.

## مقدمة

إن مجمل التحولات الاجتماعية والاقتصادية؛ وحتى السياسية التي عرفتھا الجزائر، وذلك منذ بدايات حركة النهضة في الفترة ما بين نهايات القرن التاسع عشر والى غاية الحرب العالمية الأولى؛ كانت حاسمة في توجيه مسار الأفكار، والدفع بحركة المطالب قديماً إلى الأمام على يد مجموعة من الشخصيات الوطنية؛ التي ساهمت في تنشيط وتفعيل الحياة السياسية، وحاولت بجهد ومثابرة إحداث تغيير على حال مجتمعا الجزائري المسلم.

ويعتبر الدكتور محمد بن العربي أحد أبرز تلك الشخصيات الرائدة على مستوى المهنة الممارسة وهي الطب، وكذا على صعيد الأداء السياسي والاجتماعي، واحتوائه انشغالات مجتمع مدينة الجزائر بحكمة وتحكم. وعليه فان هذه الدراسة تتمحور في التعريف به من حيث النشأة والتنشئة، والمسار الوظيفي والسياسي. وذلك وفق المخطط التالي:

## 1- التعريف بالطبيب محمد بن العربي (1850-1939م):

أ/ التنشئة والمسار التعليمي.

ب/ المسار الوظيفي.

2- لمحة عن موضوع أطروحته.

3- بعض مواقفه وإسهاماته.

1- التعريف بالطبيب محمد بن العربي (1850-1939م):<sup>1</sup>

إن المصادر التي أرخت لسيرة الدكتور محمد بن العربي تحصى على أصابع اليد؛ على الرغم من أهمية مسار الرجل وإسهاماته في الفترة الحرجة التي مرت بها الجزائر، والممتدة بين الثمانينات من القرن التاسع عشر والى غاية ما بعد الحرب العالمية الأولى، وهي الفترة التي شهدت تحولات مهمة على صعيد العلاقة بين الإدارة الاستعمارية والمعمرين بكل تجاذباتها، وكذا البدايات الحثيثة لنشاط النهضة الجزائرية التي سيجمل مشعلها ثلة من المثقفين ومنهم ابن العربي، بالإضافة إلى مجموعة الطلبة والعلماء القادمين من الخارج في الفترة اللاحقة.

وعليه نحاول في هذه الدراسة التعريف بالحكيم محمد بن العربي، مساره التعليمي والوظيفي، وتبيان دوره السياسي في مجتمع مدينة الجزائر، وابرز مواقفه وآرائه، وكذا إعطاء لمحة عن أطروحته في الطب نظراً لأهمية موضوعها.

## أ/ التنشئة والمسار التعليمي

ولد محمد بن العربي الصغير بشرشال؛ في ديسمبر 1850م (1267هـ)، من أسرة مثقفة ذات أصول أندلسية على الأرجح، ولذلك وجدنا من يكتب اسم العائلة "بن عرباي" (Ben larbey) حسب شهادة ميلاده التي صدرت حديثاً عن بلدية شرشال<sup>2</sup>. ولم نتعرف على تفاصيل وافية عن الوالدين ومستوى الأسرة، لكن يمكن أن نستشف حرصها على متابعة أبنائها للدراسة، وتحقيقهم لشهادات عليا؛ مما يدعم فكرة أن الوالد ربما كان يشغل بإحدى الوظائف المرتبطة بالسلطة، والتي مكنت أبنائه من الالتحاق ومتابعة مسارهم التعليمي بسهولة.

نشأ محمد "الصغير" كما كان يدعى وسط عائلة متوسطة العدد مكونة من أختين (الزهرة وفاطمة)، وأخوين هما على التوالي: محمد وعمل مترجماً، وقد توفي قبل 1884م، لأننا وجدنا إهداءً خاصاً لذكره في أطروحة الطب. أما قدور كان طبيباً أيضاً؛ تخرج من كلية الطب بباريس سنة 1888، وكان موضوع أطروحته عن: "التهاب الجفن الحبيبية والكحل لدى العرب"، وعمل بتونس إلى غاية وفاته المبكرة سنة 1893م.<sup>3</sup>

تابع دروسه بالمدرسة الابتدائية والإكمالية بمسقط رأسه وبالجزائر العاصمة، وتم قبوله بكلية الطب (التحضيرية) بالعاصمة، ومنها التحق بجامعة باريس لاستكمال دراسة الطب<sup>4</sup>، ولم نجد ملامح خاصة عن هذه الفترة المهمة من حياة الفتى محمد، والتي يمكن تصور أنها -على غرار أقرانه - كانت حافلة بالاكشافات والمطالعات سواء المعرفية أو الاجتماعية والثقافية؛ ما بين المجتمعين الجزائري المسلم والأوروبي.

استكمل محمد دراسته الجامعية؛ بنيل الشهادة بتقدير ممتاز، وناقش أطروحته المتميزة بباريس بتاريخ 16 جويلية 1884م، وكان موضوعها "الطب العربي (التقليدي) في الجزائر"، وقد استهلها بالحديث النبوي الشريف: "اللهم إنا نسألك العفو والعافية". وبحسب ما تم تداوله فإنه بعد نهاية جلسة المناقشة الخاصة بأطروحته؛ تقدم عميد كلية الطب بباريس ورئيس اللجنة المناقشة: البروفيسور "بيكلار" (Beclard) بتهنئة ابن العربي عن النجاح الباهر، وفاجأه بقوله: "لقد أعدنا اليوم ما أخذناه بالأمس (من علوم طبية)". وكان ممن حضر تلك الجلسة صديقه المقرب الكاتب المعروف "فيكتور هيجو"، وقيل أن هذا الأخير طلب منه حينها عدم التفكير في العودة إلى الجزائر؛ لاستثمار نجاحه بفرنسا، وقد عبر ابن العربي عن صداقته لهيجو بأن خصه بإهداء مميز في مقدمة أطروحته، وعقد العزم على العودة سريعاً إلى الجزائر<sup>5</sup>.

وجدير بالقول أن أطروحته تلك تمت ترجمتها آنذاك إلى اللغة العربية لأهمية موضوعها، وذلك على يد أحد الكتاب<sup>6</sup>، وطُبعت بالمطبعة الرسمية، وسُجلت تحت رقم 4256 بتونس سنة 1891م<sup>7</sup>، وربما كانت المبادرة من أخيه قدور؛ الذي كان يعمل هناك طبيباً خاصاً بالقصر الملكي.

### ب/ المسار الوظيفي

عاد محمد بن العربي بعد تخرجه مباشرة إلى الجزائر، وتنقل يمارس الطب بين عدة مناطق ومدن كالمدية، العفرون وبورقيقة... الخ، ولكنه استقر بالعاصمة بطلب وإلحاح من أهلها وأعيانها، ومنهم بالأخص المفتي الحنفي الشيخ محمد بوقندورة، ولم نتعرف إلى أسباب ذلك؛ خاصة أنه كان حديث العهد بالقدوم إليها. وهكذا تمكن بعد فترة قصيرة من افتتاح عيادته الخاصة بساحة الشهداء، وتداول عنه أنه كان طبيباً ناجحاً، مساعداً للناس؛ متواضعاً، معترفاً باللباس التقليدي الجزائري المتمثل في البرنوس والقشابية والشاشية، وله صورة وحيدة بذلك. ولم تذكر المصادر القليلة التي كتبت عنه أنه تجنس بالجنسية الفرنسية؛ خاصة أنه كثيراً ما ندد بقانون الجنسية (المطبق منذ سنة 1865م)<sup>8</sup>.

وقد حظي الدكتور ابن العربي بمكانة رفيعة وسط الناس، وذاع صيته حتى خارج الجزائر العاصمة، وتحدث عنه معاصروه بكثير من الإطراء والتقدير، فكتب عنه مثلاً الشيخ محمد السعيد الزاهري (1899-1956م) في كلمة تأيينية للدكتور محمد بن شنب (1869-1929م)، وكان مما قاله عنه في مقال نشر بجريدة "المقتطف" المصرية (01/11/1929م): ".. عرفت رجلين هما من أشد الناس تواضعاً وزهداً فيما يرغب فيه الناس، ويتهالون عليه من الشهرة والجاه، وهما من أولى الناس بهما؛ فقد تهيأ لهما من أسباب ذلك ما لم يتهيأ لكثير من سواهما من المشهورين في الجزائر؛ أحدهما هو الدكتور محمد بن العربي أو "الشيخ" كما يلقبه الناس في الجزائر؛ لأنه متواضع ومحترم..<sup>9</sup>

أما الشيخ عبد الرحمان الجيلالي (1908-2010م) الذي عرف ابن العربي شخصياً، فقد أشار إلى أهمية موضوع أطروحته في الطب، بدليل ترجمتها، وتقريضها من قبل مجلة الجراحة والطب الصادرة بباريس، وثناء الأطباء هناك على صاحبها؛ الذي وصفه بأنه كان إلى جانب تفانيه في عمله؛ مواظباً على أداء الصلوات في المسجد، وعلى حضور دروس الشيخ عبد الحليم بن سماية بالجامع الجديد؛ على الرغم من تقدم سنه، وأنه تميز أيضاً بروحه الوطنية، وباعتزازه بانتمائه الإسلامي.<sup>10</sup>

## 2- لمحة عن موضوع أطروحته

اختر محمد بن العربي دراسة الطب العربي في الجزائر موضوعاً لأطروحته، ولا شك أن هذا الاختيار مثل لدى صاحبه رغبة دفينية في الربط بين تاريخ الطب بالمنطقة في المراحل التاريخية المختلفة، وما جاء به الطب الحديث من جهة ثانية. وعموماً فقد جمعت الأطروحة ما بين أصول الطب "الأهلي" والتقنيات الحديثة.<sup>11</sup> وقد تضمنت الأطروحة مدخلاً تمهيدياً وفصلين من خمسة مباحث؛ نلخص محتواها كالتالي:

### المدخل

عنونه ابن العربي بالطب العربي (التقليدي) في الجزائر، وطرح فيه الإشكاليات العامة للبحث، وأثار عدة رؤى ارتبطت أساساً بالعلاقة بين الجزائريين والفرنسيين، ومن ذلك نذكر المقتطف التالي: "لقد قدمت فرنسا للجزائر منذ خمسين سنة، ولم يكن بوسعها السعي سوى نقل كنوز الحضارة الحديثة للأقاليم البربرية، ولكننا نبحت اليوم باسم الإنسانية والتقدم عن عمليات الاكتشاف الحديثة للشعوب الأهلية التي تنتظر منذ قرون، وتقبع في اللامبالاة، وهل من العدل أن ترفض فرنسا لشعوب مستعمراتها نفس المعارف النافعة؟، وتتجاهل استعدادها للتطور؟، أي بكلمة واحدة معاملتهم كبرابرة ذوو عرق دوني".<sup>12</sup>

وتابع بخصوص الترقية المنتظرة للجزائريين على يد الفرنسيين فقال: "اسمح بقول رأي واضح عندما نرى الشباب الجزائري المسلم؛ الذي يستطيع أن يجد نفسه في كل المجالات الاجتماعية، الجيش، الترجمة المدنية والعسكرية، مختلف الوظائف الإدارية، المجالس العامة والبلدية... الخ".<sup>13</sup>

ويرر ابن العربي خياره لدراسة الطب من منطلق ذاتي فكتب: "بخصوص اختياري لمهنتي؛ لطالما اعتقدت أنني يجب أن استفيد من الظروف لإعداد الأطروحة الخاصة بالطب، وتبيان بعض الأمثلة الموثقة للممارسات الطبية العلاجية لدى الجزائريين"،<sup>14</sup> وكان يقصد فعالية وتأثير تلك الممارسات على حياتهم اليومية، وتعایشهم مع المرض بإيجاد الوسائل الكفيلة بالوقاية والعلاج.

## الفصل الأول: (من الصفحة 11 إلى الصفحة 26)

حمل هذا الفصل عنوان: تاريخ الطب العربي في المشرق والمغرب، وتضمن التعريف بتاريخ تطور الطب لدى المسلمين، وذكر أبرز الأطباء الذين تركوا إسهامات جليلة في تخصصاتهم، وتتبع عبر القرون والحقب الزمنية أهم المؤلفات ذات الصلة،

وخاصة منها تلك التي أحدثت نقلة نوعية في المجال الصحي. كما انه تعرض إلى واقع الحواضر الإسلامية المزدهرة، وحال مراكز العلم في الفترة الوسيطة مثل دمشق والكوفة والبصرة والأندلس وغيرها؛ حينما كانت أوروبا تقبع في ظلمات الجهل وتعسف رجال الكنيسة، وقدم إحصاءات عن غنى المكتبات في البلاد العربية والإسلامية بأمهات الكتب والمخطوطات، وانتعاش الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمسلمين، ومدى تأثيرها على الحالة الصحية.<sup>15</sup>

كما أنه أبرز مساهمة الجزائر ومنطقة المغرب عمومًا في مجال الطب، وذكر أشهر الأطباء والمعالجين، وأورد علاقتهم بالحكام، ومنهم من ترجمت أعمالهم إلى اللغات الأجنبية، وبالتالي استفاد منهم الغرب، وعلى رأسهم الطبيب عبد الرزاق بن حمادوش، وأشار أيضاً إلى دور المفكر "ابن خلدون" في بعث البحث على أصوله الموضوعية.<sup>16</sup>

### الفصل الثاني: (من الصفحة 27 إلى الصفحة 54)

جاء الفصل الثاني بعنوان: الطب العربي الحالي (الحديث)، وانقسم إلى أربعة

مباحث رئيسية نلخصها فيما يلي:

#### المبحث الأول: علم الأمراض

عرف الدكتور ابن العربي في البداية ببعض الأمراض والإصابات، وقدم العلاجات الطبية اللازمة لها، وأدرج أمثلة كثيرة عنها؛ من ذلك مثلاً حب العرق الذي كثيراً ما يصيب الجلد ويهيج البشرة، وينتشر في العادة بسبب الحرارة الشديدة والرطوبة الناجمة عن كثرة التعرق، فنصح بالتعرض للبخار، ودهنه بعصير الرمان والطماطم والحناء... الخ. ووصف بعض العلاجات بواسطة النخيل بدءاً بعلاج الإسهال، وانتهاءً بعلاج الضعف الجنسي.<sup>17</sup>

#### المبحث الثاني: الجراحة

لم يغفل ابن العربي عن تخصيص حيز من هذا الفصل لمناقشة وضع علم الجراحة لدى العرب؛ باعتباره شكلاً فارقاً بينهم وبين الأوروبيين، وأشار إلى عدم رغبتهم في الخضوع للعمليات الجراحية المختلفة، وتفضيلهم التداوي بالأعشاب والعقاقير بدل ذلك، كما وصف عمليات الختان والحجامة ومعالجة الكسور بوضع الجبيرة عليها، والشروط المفترضة لضمان الشفاء... الخ.<sup>18</sup>

#### المبحث الثالث: النظافة

قدم ابن العربي في هذا المبحث آليات الحفاظ على الصحة والشباب والجمال، وذلك عن طريق التعريف بفوائد الاستحمام، وأهمية التلقيح في مقاومة الأمراض؛ خاصة منها الجدري الذي كان منتشرًا كثيراً، وقدم وصفات لتركييب الكحل،

ووصفات للحناء، وشرح مزايا ومنافع التداوي بالأعشاب والنباتات، ونبه إلى أنها قد تكون تجارة رابحة؛ مادامت تلك المواد متوفرة محلياً، ويمكن استغلالها للتداوي بها أو للأغراض التجميلية. وأشار أيضاً إلى كون بعض الأمراض لم يعرفها الجزائريون من قبل، وأنها انتشرت بعد الاحتلال الفرنسي للبلاد؛ كالأمراض الجنسية، ومنها بالخصوص مرض الزهري، وقدم إحصاءات تبين تلك المقارنة.<sup>19</sup>

### المبحث الرابع: الأدوات الطبية

تناول هذا المبحث وصفاً لبعض العمليات التقليدية، وأبرز منافعها، وكذا تعرض لبعض الخلطات المتداولة (وكان قد أشار إليها قبلاً) مثل استعمال الكحل والحناء والخروب وغيرهم في التداوي؛ عن طريق تحضير عدة وصفات علاجية وتجميلية، وقال أن بعضها لا يزال القاعدة الأساسية في تكوين بعض الأدوية الحديثة.<sup>20</sup>

وأكد مثلاً على أهمية نبات الزيزفون في شفاء الأمراض، وفوائد الخل في علاج سم الأفاعي، وجدوى العناب ضد الحمى، وبخلطه مع الزيت يكون مضاداً فعالاً للمشاكل الصدرية، واستشهد بآراء عبد الرزاق (بن حمادوش) في أن شراب العناب مفيد في علاج الجدري والحصبة وفي مشاكل ضغط الدم.<sup>21</sup> أما بونافع (بونفاع) فقال أنه علاج متعدد للروماتيزم، والنزلات الصدرية الحادة، واحتقان المفاصل، وشلل الأعصاب وغيرها. وعن الحناء قال أنها تدخل في كل العادات الخاصة بالأهالي؛ نظراً لفوائدها الكثيرة في علاج بعض مشاكل البشرة والقمل، ولسع بعض الحيوانات، وأن خلطها ببياض البيض يسهل علاج الكسور، كما أنها مضاد للحروق الناجمة عن النار، ويمكنها علاج الإسهال، وبعض مشاكل الإجهاض، وأن بخار أوراقها فيه شفاء للعقم.<sup>22</sup>

وعدد ابن العربي في ذات السياق فوائد بذور السمسم (الجلجلان)، ودورها في تقوية الجسم؛ خاصة بعد الأمراض الطويلة الأمد، بحيث يتم غليه مع الحليب وتناوله، أو بطحنه وخلطه مع العسل يستعمل لشفاء السعال والعقم والبيحة واليرقان... الخ. أما فاكهة الموز فقال أنها تستخدم في علاج الندوب والقرحة المعدية. واعتبر أن النخيل والتمر "ملك النبات"، وأنها علاج بدءاً بحبوب الطلع، وانتهاءً بالتمر الناضج، وذكر أن فوائدها لا تحصى سواء بالنسبة للأغصان أو الأوراق والنواة وغيرها، وكذا الحال أيضاً لكموس النصارى (التين) والخروب والرمان ... الخ.<sup>23</sup>

وتعرض لبعض أنواع الرجيم والحميات المتبعة، والطقوس المرافقة للعلاج كالمحافظة على تهوئة المكان، ومتابعة العلاج،<sup>24</sup> وهذا ما يدفعنا إلى القول أن

الدكتور ابن العربي كان ملماً المأمراً كبيراً بالطب التقليدي المتداول بالجزائر، وأنه لم يعارض استعمالاته الناجعة؛ بل حرص على إبراز الفوائد وتبيان الأضرار.

### المبحث الخامس: الطب الشرعي

تعرض هذا المبحث لقضايا جد هامة؛ تعلقت بجانبين أحدهما طبي بحت والثاني فقهي أو قانوني، وذلك مثل موضوع المدة المخصصة للحمل، ومواصفات الجنين "الراقد"، وما ارتبط بمسائل إثبات الأبوة، وشرعية الأولاد، والميراث، ووضع المرأة الغائب عنها زوجها ... الخ من القضايا الشائكة. كما أنه تناول جوانب من العلاج البديل لأمراض أخرى (قد لا يجدي معها الدواء المذكور نفعاً) كبعض أمراض العيون وغيرها.<sup>25</sup> وفي الأخير قدم ابن العربي بعض الأسئلة الشائكة المتعلقة بتخصصه وبيعض المصطلحات، وعموماً يمكن القول أن هذه الدراسة عبارة عن عرض تاريخي لعلاقة السكان بالطب والأدوية واللقاحات وغيرها؛ حتى قبل الوجود الفرنسي، ومدى التغيير الذي نجم عن هذا الأخير. غير أن ما يلاحظ في هذا الجانب هو الاعتماد الكلي على المصادر الأجنبية والفرنسية تحديداً في مادته المعرفية، حتى لو تعلق الأمر بأمهات الكتب العربية الإسلامية؛ حيث نقل عنها وعن أصحابها انطلاقاً من المصدر الأجنبي.

### 3- بعض مواقفه وإسهاماته

لا يكاد يذكر الدكتور محمد بن العربي؛ إلا وارتبط اسمه بأهم القضايا التي كانت تخص مجتمع مدينة الجزائر في الفترة ما بين نهاية الثمانينات وإلى غاية الحرب العالمية الأولى (وسياتي ذكر بعضها). ومن المهم القول أن الباحث في هذا الجانب يصطدم بقلة المصادر الوثائقية التي من شأنها شرح وتفصيل الإسهام السياسي والاجتماعي للرجل، لاسيما أنه لم يترك (على الأغلب) أية مذكرات أو كتابات شخصية، وهذا تحديداً ما دفعنا إلى محاولة استقراء مجالات نشاطه من خلال بعض الكتابات الأخرى ذات العلاقة أو المزامنة له.

ويمكن الإشارة بداية إلى المناصب السياسية والإدارية التي تقلدها الدكتور ابن العربي، حيث تم تعيينه مستشاراً بلدياً منذ سنة 1888م، وهو المنصب الذي سمح له بالوقوف على مجمل انشغالات فئة الجزائريين المسلمين، وكذا مكنه من الاطلاع على أبرز المشاريع الاستعمارية المطروحة حينها للمداولة والنقاش على مستوى بلدية الجزائر، ولم تقدمنا المحاضر المتوفرة آنذاك إلا على تفاصيل قليلة بشأن ذلك، ولكن وجود اسم الدكتور محمد بن العربي ضمنها أكد على حضوره الدائم وتدخلاته كانت ملفقة وجديرة بالبحث والاهتمام.

وعن أبرز مواقفه العملية في هذا المجال فنذكر منها أولاً قضية التصدي لقرار الحكومة الفرنسية القاضي بهدم الجامعين الجديد والكبير؛ من أجل إقامة مشروع فنادق فخمة مكانهما؛ في مسعى "تجميل وتوسيع المدينة"، وهو المشروع الذي ظل قائماً ومطروحاً حتى سنة 1905م (في عهد الحاكم "جونار")،<sup>26</sup> والذي انتهى بتدخل هذا الأخير لإلغائه بعد الجهود والمسااعي الكبيرة التي قام بها بعض أعيان مدينة الجزائر، وعلى رأسهم محمد بن العربي وآخرون، بالإضافة إلى الهبة الشعبية التي دعمت تلك المسااعي؛ خاصة أن الوضع بالجزائر كان متوتراً نسبياً، ولا ينبئ عن استقرار.<sup>27</sup>

ثانياً وفي ذات المسعى تدخل ابن العربي لدى السلطات الاستعمارية سنة 1891م، وطلب في عريضة ممضاة إلغاء قرار استبدال المحاكم الإسلامية بمحاكم الصلح، وهي المسألة التي كانت لها عواقب وخيمة على صعيد تشتيت شمل المتقاضين المسلمين، وإخضاعهم لأهواء وتحيز القضاة الأوروبيين.

وانتهت تلك الجهود الحثيثة التي قادها الدكتور ابن العربي بمساعدة صديقه النائب امحمد بن رحال في الأخير بإرسال البرلمان الفرنسي في ذات السنة (1891م) لجنة تحقيق في الموضوع برئاسة "جول فيري"، واستغل الدكتور ابن العربي تلك الفرصة عند وصول اللجنة لتقديم جملة من المطالب المتعلقة بالإصلاح في مختلف المجالات على لسان الجزائريين.<sup>28</sup>

وكانت للرجل تدخلات مهمة في عدة قضايا تخص مدينة الجزائر وقاطنيها من المسلمين تمحورت إجمالاً في إطار الدفاع عن الدين الاسلامي واللغة العربية والحريات الشخصية، وكذا في إطار مجمل الاهتمامات الاجتماعية للسكان، وقد نشرت بعض تلك التدخلات والتعليقات في أعداد "النشرة البلدية الرسمية لمدينة الجزائر" (Bulletin municipal officiel de la ville d'Alger)، ولم نجد لذكره أثراً تقريباً في الصحف الصادرة حينها الا فيما سبقت الإشارة اليه.<sup>29</sup>

وقد حظي الدكتور ابن العربي بمكانة متميزة وسط اهالي مدينة الجزائر من الجزائريين وكذا الأوروبيين على السواء، وربطته صداقات متينة مع شخصيات مهمة ومرموقة؛ ذكرنا منها الكاتب الفرنسي الشهير: "فيكتور هيجو" وبعض الأطباء المشهورين آنذاك مثل: الدكتور "قرو" (Gros)، والدكتور "تيكسييه" (Tixier) والدكتور "بيتران" (E.L. Bertherand) وغيرهم. ولم نعرف عن تقدير السلطات الاستعمارية له؛ سوى تقليده وسام جوقة الشرف من الصنف الأول نظير إسهاماته الطبية.<sup>30</sup>

توفي ابن العربي عن عمر ناهز التسعين؛ بعد مسار طويل جمع بين حب المهنة والناس، والتفاني في أداء الواجب، والانشغال بالقضايا الوطنية، وفي حدود علمنا أنه لم يترك مذكرات مكتوبة، أو مؤلفات منشورة؛ بالنظر لتخصيصه جل وقته ما بين العيادة والتنقل لحل وطرح ما يتعلق بشؤون مواطنيه في مختلف المجالس السياسية بالجزائر وبفرنسا. وقد رحل الرجل في صمت بتاريخ 20 أكتوبر 1939م (1358هـ)، ودفن بمقبرة القطار بالجزائر العاصمة -رحمه الله-.<sup>31</sup>

### خاتمة

يمكن القول أن مهنة الطب -كانت ولا تزال- مجالاً إنسانياً بحثاً؛ قد تختفي فيه الخلافات، وتتأى عنه السياسة بعيداً. غير أننا من خلال النموذج المذكور (وعدة نماذج أخرى) نجد تلك المزاوجة الملفتة ما بين مجال التخصص العلمي البحث، وما بين محاولة إبلاغ خطاب سياسي لجهة ما. وكذا نستوضح الرغبة في التغيير التي أرادها هؤلاء، وعملوا على تحقيقها من خلال أعمالهم ونشاطهم؛ بل وحتى قبل ذلك في كتبهم ومنشوراتهم.<sup>32</sup>

إن امتهان الطب لم يكن يمنح العديد من الأفراد (ومنهم الدكتور محمد بن العربي) من التفكير في حال شعبهم ومآله مع مرور الزمن، أو يدفعهم من جهة أخرى إلى تبني الطرح الآخر، والمتمثل في العمل على بناء روابط مع الأجنبي، والرغبة في كسب وده وتقديره في محاولة لرد الاعتبار للذات الجزائرية نفسها، وهو تحديداً ما مثل مأزق النخبة المفرنسة الاندماجية،<sup>33</sup> نذكر عن ذلك مثلاً ما كتبه معاصره الدكتور الطبيب ولد مرسلي في واجهة أطروحته في الطب: "إهداء إلى فرنسا وطني المتبنى، والى ذكرى أبي وأمي وندم ابدى"، واستهل المقدمة بجملة مثيرة وضعها بين مزدوجتين هي: "أن البحر المتوسط ليس حاجزاً يفصل؛ بل هو طريق يجمع".<sup>34</sup>

إن إسهامات الدكتور محمد بن العربي في مجال الطب كثيرة ومشهودة، وهي في الحياة السياسية أيضاً ذات بصمة جلية لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهلها أو تجاوزها، بل يجب أن تصنف في رأي كإحدى المبادرات الفردية الجادة التي دفعت بالقضية الوطنية قدماً. وقد أبانت شخصيته عن معدن جزائري أصيل، وفكر وطني عميق؛ تجسدت أقصى أمانيه في حال أفضل لشعبه، وكان مثلاً للرجل الخدم لقومه، المتأثر بجراحهم، التأثر لآلامهم.

## الهوامش والإحالات

1. انظر ترجمته في: ابن العابد الجلابي، تقويم الأخلاق، المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، 1927م، ص 60-61.
- وذكر الشيخ عبد الرحمان الجيلالي تاريخ مولده سنة 1853م. انظر: تاريخ الجزائر العام، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ج05، ص 330.
2. انظر: جمال بن عمار: محمد الصغير بلعربي: أول داعية جزائري معاصر لاستعادة الأندلس في: [andalous.ddzwworld.org](http://andalous.ddzwworld.org) (2017/01/20)
3. ذكرنا أن قدور بن العربي قد ناقش أطروحته في الطب سنة 1888م، أي بعد أخيه محمد بأربع سنوات، والذي كان قد شرع في ممارسة مهنته حينها؛ أي أن قدور في كل الأحوال التحق بتونس بعد إعلان الحماية الفرنسية عليها بكثير، وهذا بخلاف ما ذكره الأستاذ أبو القاسم سعد الله وآخرين من أنه كان هناك قبل 1881م.
- انظر الملاحق، وكذا: سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، دار البصائر، 2010، طبعة خاصة، ج 05، ص 491.
4. تأسست مدرسة الطب بالجزائر سنة 1857م، ببداية متعثرة، وعدد قليل من الطلبة الجزائريين الملتحقين والمقبولين، واعتبرت بمثابة المدرسة التحضيرية لطلبة الطب والصيدلة لغاية سنة 1889م؛ مع مواصلة المستويات والامتحانات النهائية وجلسات المناقشة بباريس. ومن المهم معرفة عدد المسجلين بها من الجزائريين في الفترة ما بين سنتي 1857 و 1889م، والذين قدروا بثلاثة وثلاثين طالباً؛ منهم ستة أطباء فقط.
- انظر: سعد الله، المرجع نفسه، ج07، ص 275. وكذا: La revue africaine, 1905, pp 408- 414.
5. انظر الملاحق.
6. ترجمها علي بوشوشة (1859-1917م)، من أصول جزائرية، واحد أعلام الصحافة بتونس؛ فهو صاحب جريدة "الحاضرة" التي صدرت ما بين 1888 و 1911م، واحتضنت قضايا المنطقة والعالم الإسلامي بصفة عامة، وكانت منبراً للأقلام والمقالات الجزائرية الرائدة؛ مثل عمر بن قدور وعمر راسم ومحمود كحول وعلي فخار وغيرهم.
- انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج05، ص 492 وص 608.
7. انظر على التوالي: عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ص 331. وأبو القاسم سعد الله: مرجع سابق، ج05، ص 492.
8. ابن العابد الجلابي، مرجع سابق، ص 60-61 وانظر: سعد الله، مرجع سابق، ج07، ص 270.

9. نقلاً عن: الجيلالي، مرجع سابق، ص 331.
10. عبد الرحمان الجيلالي، مرجع سابق، ج 05، ص 339.
- وكان الدكتور ابن العربي في شبابه قد زار بعض المدن الأوربية ومنها ارض الأجداد (الأندلس)، وقال أنه جدد إسلامه فيها؛ بعدما تحول الإسلام في الجزائر عن وظيفته بفعل الوجود الاستعماري. نقلاً عن: سعد الله، مرجع سابق، ج 07، ص 269.
11. قدم الأستاذ أبو القاسم سعد الله ملخصاً موجزاً عن الأطروحة، وأشار إلى نسختها المعربة. انظر: المرجع نفسه، ج 07، ص ص 259-262.
12. Mohamed Ben Larbey Seguir : La médecine arabe en Algérie, Paris, 1884, p09.
13. Ben Larbi, ibid, p 10.
14. Ibid.
15. Ben Larbi, p 16.
16. Ben Larbi, p 25.
17. Ben Larbi, p 28.
18. Ben Larbi, p 30- 31.
19. Ben Larbi, p 33- 34.
20. Ben Larbi, p41.
21. Ben Larbi, p 42.
22. Ben Larbi, p 42- 43.
23. Ben Larbi, pp 46- 48.
24. Ben Larbi, p 50.
25. Ben Larbi, p 50- 51.
- وانظر: سعد الله، مرجع سابق، ج 07، ص 262.
26. لاحظ استهداف السلطات الاستعمارية منذ مجيئها سنة 1830م للمؤسسات الدينية، وعلى رأسها المساجد العتيقة؛ نظراً لما كانت تمثله لدى السكان من رمزية دينية واجتماعية، ولم تسلم تقريباً كل المساجد بالجزائر، وبالأخص في العاصمة من الهدم والتحويل عن الوظيفة. انظر: سعد الله، مرجع سابق، ج 07، ص 270. وكذا:
- Albert Devoulx : Notes historiques sur les mosquées et autres édifices religieux d'Alger, Revue africaine, № X, 1866.
27. نذكر من الأعيان الذين دعموا مبادرة الدكتور ابن العربي لإيقاف قرار هدم الجامعين خاصة المحامي عمر بوضرية.
- انظر: جريدة "الأخبار"، 1905/03/27م. نقلاً عن: سعد الله، مرجع سابق، ج 05، ص 35.

28. تضمنت تلك المطالب بالخصوص ما يلي: ⚡تعميم التعليم لدى الجزائريين، وتسهيل إجراءات الالتحاق، والاستفادة من الشهادات والوظائف، وإعادة الاعتبار لمدرسة الطب التي

كانت بحالة يرثى لها. \* الإبقاء على القضاة المسلمين، وتعيينهم في أماكن إقامتهم الأصلية؛ نظرا لعلمهم بأحوالها، لغتها، وعاداتها.. \* تخفيف الضرائب المفروضة على الجزائريين، تنظيم وضبط شؤونها؛ خاصة سلوك المشرفين على الجباية، والنسب غير العادلة، والمطالبة بها قبل النصاب والوقت المحدد، والإخلال بالتعداد، والاعتماد على الإفادات والتصريحات المغرضة. \* إعادة الأوقاف لأصحابها وجهاتها؛ نظرا لحاجة الفقراء والمحتاجين لها. \* إبطال القوانين الزجرية، ورفع مبدأ المسؤولية الجماعية. \* جعل التجنيد العسكري اختياريا وليس إجباريا، وفتح باب الترقية لصالح الجزائريين. \* إصلاحات في مجال تنظيم الملكية وما ارتبط بها من مسائل عقارية وقانونية... الخ.

انظر النص كاملاً في: الجليلي، مرجع سابق، ص ص 70-81. وكذا: الجليلي، مرجع سابق، ص 333.

29. انظر مثلاً:

Bulletin municipal officiel de la ville d'Alger, Alger, no 626, 29e année, 12/02/1926, p08.

30. الجليلي، مرجع سابق، ص 332.

31. خلف الرجل أبناء وأحفاد كتبوا عنه في بعض الجرائد كالفجر وغيرها، وناشدوا السلطات إعادة الاعتبار لجدهم بإطلاق اسمه مثلاً على كلية الطب الجديدة بالعاصمة.

32. ربما اكتفت فئة أخرى من الأطباء الجزائريين بالممارسة الرتيبة لمهنتها في المستشفيات الحكومية الفرنسية؛ بالجزائر أو بفرنسا، ولم تتبن بوضوح القضية الوطنية، أو على الأقل لم تجرأ على التعبير عن ذلك ما دامت مرتبطة بوظيفتها، وهو ما يعطينا حق إصدار حكم عام يتعلق بكون المجموعة النخبوية الأكثر نشاطاً في الحركة الوطنية هي الفئة المتحررة وظيفياً والمستقلة مادياً.

33. للتفصيل انظر مثلاً: غي بيرفيي: النخبة الجزائرية الفرنكوفونية (1880-1962)، تر.

م. حاج مسعود وآخرون، دار القصبة، الجزائر، 2007، ص 66.

34. انظر الملاحق.

Taieb Ouled Morsly : Contribution a l'étude du paludisme dans ses rapports avec le traumatisme, thèse présentée et publiquement soutenue a la faculté de médecine de Montpellier le 14/12/1881, p 04.